المدرسة التركية العثمانية

لا نعرف إلا الخطوط العامة لإنتاج هذه المدرسة، إذ لم يتيسر بعد أن ندرس الصور التي رسمها فنانوها دراسة وافية تساعد على تكوين فكرة كاملة عن تطورها، ولا يزال كثير من المخطوطات التركية المصورة محفوظاً في مكتبات تركيا ينتظر الدراسة.

ومع ذلك فقد ساعدنا العدد القليل من الصور التركية المعروفة على تكوين فكرة عن مميزات هذه المدرسة والعوامل التي أثرت في إنتاجها.

وأول هذه المؤثرات التصوير الإيراني الذي نشاهده بوضوح في أول إنتاج لهذه المدرسة نتيجة السياسة التي اتبعها سلاطين آل عثمان في القرن ١٥، ١٦م بعد استيلائهم على القسطنطينية إذ ساروا على نهج أسلافهم حكام بروسة في القرن ١٤م الذين كانوا يستدعون الفنانين الإيرانيين للعمل في بروسة فاستدعى هؤلاء كثيراً من المصورين والمذهبين الإيرانيين للعمل في القسطنطينية ونعرف منهم حاجي محمد نقاش آصفهاني وولي جان وشاه قولي.

ومن مصادر التأثير الإيراني أيضاً المخطوطات المصورة التي قدر لها أن توضع تحت أنظار المصورين كمجموعة المخطوطات التي حملها معه بديع الزمان مرزا بن السلطان حسين بيقرا إلى القسطنطينية عندما هرب إليها عقب فشله في وقف الغزو الأزبكي. والمخطوطات التي جمعها السلطان بايزيد من المكتبات التيمورية.

وتحت هذا التأثير وذاك أقبل المصورون الأتراك في المراسم التركية كذلك المرسم الذي أنشأه سليمان بالسراي على رسم الصور مقلدين الإنتاج التيموري والصفوي بعهديه الأول والثاني، ولم يغفلوا مع ذلك إظهار الخصائص التركية كالملابس مثل القفطان والجبه والعمائم الضخمة التي كان يرتديها السلاطين ورجال البلاط وكالسحن التي تختلف عما اعتدنا رؤيته من قبل إذ تمتاز هذه ببروز الفكين (شكل ١٤).

(شكل ١٤) صورة من المدرسة التركية العثمانية - القرن ١١هـ - ١٧م

ومن المميزات الخاصة بالتصوير التركي العمائر ذات الأسقف المسننة التي لم نشاهدها من قبل وهذا أثر من آثار البيئة بالطبع، كذلك انفردت المدرسة التركية برسوم المعارك الحربية، وتعد من ابتكارات المصور التركي، ولا يمكن أن تكون رسوم المعارك الحربية القليلة في المدرسة الإيرانية مثالاً احتذاه المصور التركي.

وألوان الصور التركية زاهية ويكثر فيها الذهب والفضة وهي مع ذلك أقل تنوعاً من ألوان المدرسة الإيرانية.

ونعرف من المصورين الأتراك حسام زاده صنع الله وكان شاعراً أيضاً وعثمان وحيدر وشبل زادة أحمد ونقشي ومعين ولفني عبد الجليل شلبي.

وقد اتبع كل من معين ولفني عبد الجليل شلبي أسلوب رضا عباس أي استخدام الحبر الصيني أما حيدر ونقشي فقد تأثر بالأسلوب الغربي فحيدر ينقل رسوم فرنسوا الأول من عمل المصور كلويه الفرنسي.

والواقع أن التأثير الأوربي كان قد وجد طريقه منذ القرن الخامس عشر الميلادي إذ سهل سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين اتصالهم بالغرب فاستدعى السلطان محمد الثاني ستة من الإيطاليين من بينهم جنتيلي باللليني الذي أرسله دوج البندقية في سبتمبر سنة ١٤٧٩ فظل حتى نوفمبر سنة ١٤٨٠ ورسم كثيراً من الصور للسلطان. وما يؤسف له أن قليلاً جداً من إنتاج هذا المصور الذي امتد تأثيره حتى إيران حيث تأثر به بهزاد هو الذي وصل إلينا لأن السلطان بايزيد ٢ أمر بإخراج هذه الرسوم من القصر فاشتراها التجار الإيطاليون ومن بين هذه الصور واحدة محفوظة في المتحف الأهلي بلندن.

وفي عهد السلطان أحمد ينصرف الفنانون إلى نسخ المخطوطات ويقل الإقبال على توضيح المخطوطات بالصور. وفي القرن ١٨م يتأثر التصوير التركي بأسلوب الروكوكو، وفي نهاية هذا القرن يقبل المصورون على استخدام الزيت بدلاً من الألوان المعدنية.

ويذهب بعض الباحثين والدارسين إلى أن التصوير التركي لم يزدهر لعدة عوامل منها العداوة الشديدة للتصوير حتى إن هواته كانوا يضطرون إلى إخفاء مجموعاتهم مثل الصدر الأعظم قرة مصطفى عندما سقط عام ١٦٨٣م، ومنها عدم توفر الذوق الفني لكثير من السلاطين العثمانيين وقد سبق أن رأينا أن ازدهار الفن أو اضمحلاله متوقف على سياسة السلاطين والحكام، ومنها أيضاً عدم النبوغ والالتجاء إلى المصورين الأجانب كما فعل السلطان محمد الثاني غير أننا نرى أن كثيراً من الأحكام لا يمكن أن نطمئن إليها إلا بعد أن تدرس مجموعة المخطوطات التركية دراسة وافية تساعد على تكوين فكرة صحيحة عن هذه المدرسة.